أَخذ دروس النصر والعزّة مِن خِلال صُلح الحُدَيْبيّة في أحداث هُدْنة غَزّة

2023-12-01

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام. وأكرمنا بنبيّه سيّدنا محمّد عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام. وجعل آثاره الكريمة ضالّتنا المنشودة. والإقتداء بهديه الأهدى غايتنا المقصودة. وأمنيّتنا المودودة. فسبحانه من إله جعل سيرته الزّكيّة أمنًا لمن تمسّك بها ونجاة من المعاطب. فهي أساسَ العمل والعبادة، والإقتداء بها يحقِّق في الدارين السعادة، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أيّدَ رُسُلَه والصّالحين من عبادِه بالنّصرِ والفتحِ المبينِ؛ ليُظْهِرَ الحقَّ، ويُزْهِقَ الباطلَ، ويَقْطَعَ دابرَ الكافرين. وأشهدُ أنَّ سيّدَنا محمّداً عبدُه ورسولُه، وصفيّه من خلقه وخليله. أرسلَه ربُّه ((بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)).

نبيٌّ إن أتيتَ إلى حِماه * وجدتَ سماحةً في الكفّ بَسْطا

أتى والدِّين أصبح في انقباضٍ * فعاناه إلى أن نال بسطا

وقاتَل في سبيل الله حتى * أزال عن الورى قَنْطا وضَغْطا

جزاه الله عنّا كلّ خيرٍ * وحاط من دِمار الدّين حَوْطا

ولا زالتْ صلاةُ الله تترا * عليه ما بدا بدرٌ وغَطّا

تفوح وخَتْمها مِسْك عبيقٌ * يعمّ عبيرُه آلاً ورَهْطا

اللهم صلِّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. سبب هدايتنا، وسرّ عنايتنا، وباب سعادتنا، والشفيع الأعظم لنا يوم بعثنا وحشرنا ونشرنا، وعلى آله أهل الصدق واليقين. وصحابته المُعينين له على أعباء هذا الدين، وورثته الحاملين لواء رسالته من بعده أجمعين، وعلى كلّ من هو عامل بشريعته، مُنفِّذ لسنّته. صلاة تكون لنا مِسك الختام، دافعة للأسقام. رافعة للآلام. ننال بها الشفاعة يوم الزحام، والمجاورة في دار السلام، بفضلك وكرمك يا

أرحم الراحمين. يا ربَّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. تمرُّ أمّتُنا الإسلاميةُ في هذا الزَّمن بساعاتٍ عصيبةٍ، ونوازلَ شديدةٍ، ونكَباتٍ متلاحقةٍ. تمرُّ بامتحان صعب وصعب جداً، لقد تغيَّر حالُها ، وتبدَّل واقِعُها، فغَدَت أمّةُ الأمجادِ فِرقاً مُبعثرةً، وأُمَمَاً متناحرةً. فلا تكادُ تخرج من نكبةٍ إلا وتُصعَق بأخرى، وما أعظمُ من اغتصابِ الأراضي وسلبِ الحقوق. وإراقةِ الدِّماء. امتحان صعب وفتنة عظيمة، حتى يقول ضعاف الإيمان عن هُدْنة الصلح بين المقامة في غزّة واليهود: أين الله؟ أين نصر الله؟ ولكن علاجنا من القرآن العظيم، علاجُنا من كتاب ربنا القائل في سورة البقرة: ((أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ)). أوَلسنا نطلب الجنّة؟ الجنّةُ غالية وثمنها غال، بل هناك من يشكّك في النصر: علاجنا من خلال قول الله عز وجل في سورة سيّدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم: ((ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُم)). فمن كان الله مولاه فهو الذي يتولاّه، هناك من يشكِّك في النصر الذي أكرم الله عز وجل به المجاهدين في غزّة، ويقولون: أيُّ نصر هذا؟ تَهديمٌ، وَتَقْتِيلٌ للأبرياء، وزهقٌ لأرواح الأطفال والنساء والشيوخ العُزَّل. الذين لا يملكون حولاً ولا قوة، أيُّ نصر هذا؟ نسي هؤلاء قول الله عز وجل في سورة البقرة: ((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون)). نسي هؤلاء بأنّ الخير قد يكون فيما نَكْره. أيّها المسلمون. نسي هؤلاء سيرة النبي الأعظم سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم في صُلْح الحدَيْبية، حيث تجلّى فيه قوله تعالى: ((ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُم)). ومَن كان الله مولاه تولاّه، ومَن تولاّه ساق إليه الخير وربما أن يكون بثوب مصيبة. تجلّى في صُلح الحدَيْبية قوله تعالى: ((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَالله يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون)). وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، شيءٌ يجعلُ العبدَ في حَيْرة، لا يستطيع أن يربط بين الواقع والغيب القادم. أيّها المسلمون. في صُلح الحدَيْبية: وقع حسب الظاهر شيء يكرهه الصحابة، حتى رأينا سيّدَنا عمر رضي الله عنه كما جاء في الصحيحين قال: ((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله؟ قَالَ: (بَلَى)، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: (بَلَى)، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: (إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي)، قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: (بَلَى)، قَالَ: (أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ)؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: (فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ)، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ)). أيّها المسلمون. أنا لا أعرف الحديث عن السياسة، ولا أعرف التكلّم فيها، ولكن أرجع إلى القرآن العظيم، لنأخذ منه الآيات الكريمة ونسقطها على أحداث غزّة المنتصرة. أرجع إلى السيرة النبوية الشريفة. لنأخذ دروس وعِبَر النصر والعِزّة في هُدنة غَزّة. ولنرجع ونقول: ما الذي حصل في صُلح الحدَيْبية حتى يقول سيّدنا عمر رضي الله عنه هذا الكلام لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إسمع يا أخي الكريم ماذا تُحدِّثنا السيرة العطرة عن صُلح الحدَيْبية: أرسلت قريش سُهَيْل بن عمرو ممثِّلاً عنها ليكتب بينهم وبين المسلمين كتاب الصلح، فلمّا جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هات أُكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب. وكان الكاتب سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فيما رواه مسلم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سُهَيل: أمّا (الرحمن) فوالله ما أدري ما هي؟ ولكن أُكتب باسمك اللهمّ، فقال المسلمون: واللهِ لا نكتب إلا بسم الله الرحمن

الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُكتب باسمك اللهمّ)، ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فقال سُهَيل: واللهِ لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أُكتب (محمد بن عبد الله) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (واللهِ إني لرسول الله وإن كذبتموني)! أُكتب محمد بن عبد الله. وفي رواية مسلم: فأمر عليّاً أن يمحوَها، فقال سيّدنا عليّ: لا واللهِ لا أمحوها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرني مكانها)، فأراه مكانها فمحاها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به)، فقال سُهَيْل: واللهِ لا تتحدّث العرب أنّا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام القادم، وليس مع المسلمين إلا السيوف في قِرابها، فكتب، فقال سُهَيْل: وعلى أن لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومَن جاء منكم لم نردَّه عليك، فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ والتفتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه: أتكتب هذا يا رسول الله؟ قال: (نعم، إنه مَن ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومَن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً). أيّها المسلمون. ما هذا الصلح؟ في ظاهر الأمر الشروط تُملى من طرف واحد، ولحساب طرف واحد ألا وهو المشركون، فأيُّ صُلح هذا فيما يراه البشر؟ إنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا دِين الله، واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون، قال تعالى في سورة الأنفال: ((وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله)). وقال سبحانه في سورة الحشر: ((فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)). وحقّاً قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة وقلوبُ الصحابة تَغْلِي، وما هو إلا أن نزلت سورة الفتح بكاملها: ((بِسْمِ الله الرَّحْمَـنِ الرَّحِيم إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ الله نَصْرًا عَزِيزًا)). فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سيّدنا عمر فأقرأه إيّاها، فقال: يا رسول الله أوَ فتحٌ هو؟ قال نعم، فطابت نفسه. نعم. حيث كان هذا الفتح سببا في ظهور الإسلام وفشوّه، وذلك أنّ

المشركين كانوا ممنوعين من مخالطة أهل الإسلام، للحرب التي كانت بينهم، فلمّا وقع الصلح اختلط النّاس بعضهم مع بعض، وجعل الكفّار يرون أنوار الإسلام، ويسمعون القرآن، فأسلم حينئذ بشر كثير قبل فتح مكة. لأخرج البخاري في صحيحه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبّ إليَّ ممّا طلعت عليه الشمس. ثم قرأ: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً). فقال الصحابة رضي الله عنهم: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ)). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنّكم تعدّون الفتح فتح مكة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية. وقد ورد عنه صلّى الله عليه وسلم حين بلغه أنّ رجلا قال: ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، ومنعونا، فقال صلى الله عليه وسلم: ((بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح، ويسألوكم القضيّة، ويرغبوا إليكم فى الأمان، وقد رأوا منكم ما يكرهون)). ذكره السيوطي فى الدّرّ المنثور في التفسير بالمأثور. أيّها المسلمون. جرت سنّة الله في خَلْقه أن يوطئ بين يدي الأمور التي تعلّقت إرادته بإنجازها مقدِّماتٍ تُؤذِن بها وتدلّ عليها، وتذكَّروا قول الله عز وجل في سورة القصص: ((إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُون)). عُلُوُّ فرعون كان سبباً لِمنَّة الله عز وجل على الذين استُضعِفُوا في الأرض. فجعل منهم أئمّة ووارثين. ومكَّن لهم في الأرض، وأهلكَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما. أيّها المسلمون. وإنّ ما جرى في غزّة من هُدنة. هو نصرٌ بحمد الله عز وجل، عَرفَ هذا من عَرَفَ وجهله من جهل، نعم. ما جرى في غزّة نصرٌ، قد يقول أحدنا أين هذا النصر مع الهدم والتَّقتيل والتَّحرِيق والتشريد؟ نقول: إن لم تكن نصراً للمقاومة فأيُّ نصر كان لليهود في غزّة؟ هل بقتل الأبرياء. وقتْل النساء

والأطفال والشيوخ العزَّل. وتهديم البيوت. حقَّقوا نصراً؟ هؤلاء الجبناء الذين وصفهم الله تعالى بقوله في سورة الحشر: ((لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُون)). فعلوا ما فعلوا من خلال الطيران. ومن خلال المدرَّعات التي حبسوا فيها أنفسهم، وفَتَح لهم العالم أبوابه داعماً لهم، وحوصرت المقاومة وأهلُ غزّة. ومُنِع عنهم لا أقول السلاح بل الطعام والشراب والدواء، ومع ذلك وَلَّى اليهود أدبارهم، وما استطاعوا على المقاومة، وأوقفوا الحرب من جانبهم، أوقفوا إطلاق النار. ورضوا بالهدنة. وهذا يذكِّرني أيها المسلمون. بموقعة غزوة أُحُد، التي كانت في ظاهر الأمر انتصاراً للمشركين على المسلمين، ولكن العجيب أن نرى المنتصِر وَلَّى دُبُرَه وبقي المهزوم في داره، وتبعهم النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين خرجوا معه في غزوة أُحُد حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، وسمع جيشُ قريش بهم فولّى مدبراً، فأيُّ نصرٍ كان لهؤلاء المشركين؟ وأيُّ نصرٍ كان لليهود في غزّة؟ والمقاومة هي المقاومة بحمد الله عز وجل، وأسأل الله تعالى الثبات لهم؟ أيها المسلمون. الدرس الذي يجب علينا أن نأخذه من أحداث غزّة، وأن يأخذه قادة المسلمين والعرب مع شعوبهم، هو قوله تعالى في سورة الأنفال: ((وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ)). لا بدَّ من الإعداد، وأوّل الإعداد: هو قوَّة العقيدة، إعداد عَقَدي، إعداد إيماني بقوله تعالى في سورة التوبة: ((قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون)). إعداد إيماني بقوله تعالى في سورة آل عمران: ((وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله)). إعداد إيماني بأنّ الآخرة هي دار القرار، إعداد كما قاله سيّدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه لقادة الروم: (واللهِ الذي لا إله إلا هو. لأسيرنَّ إليكم بقوم يحبون الموت كحبكم الحياة). رواه ابن أبي شيبة. لا إعداد مادّي فقط، لأنّ القوَّة بدون عقيدة لا قيمة لها، فالقوّة لا تجعل حقّاً، ولكن الحق هو الذي يجعل القوّة. أيها المسلمون.

وعلى رأس هذا الإعداد الصلةُ مع الله تعالى، والتي تتمثّل بالصلاة، التي هي صلة بين العبد وربه، فيا أيها القادة، يا أيها الحكّام، يا أيّتها الشعوب، الصلاةَ الصلاةَ. هذا هو الإعداد الحقيقي أوّلاً، ثم الإعداد المادّي على قَدْر الإستطاعة، أمّا إذا ظننّا أنّ الإعداد يكون بالقوّة فقط دون الإعداد العقدي فقد أخطأنا الحساب، لأنّ الوصول إلى إعداد مادّي كإعدادهم يحتاج إلى زمن طويل، وربّما أن لا نصل إلى ما وصلوا إليه، ولكن نُعِدُّ على قَدْر الإستطاعة بعد الإعداد العقدي. ونحن على يقين ((وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ الله)). فيا حُماةَ الأقصى، إصبروا وصابروا ورابطوا، فإنَّ نصر الله قريب، فكلَّما اشتدَّ الظلام قرُبَ بزوغُ الفجر، ((وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ)). فاللهم يا كاشفَ الهمِّ. ويا منفِّسَ الكرب، ويا رافع الضُّر، يا رحمنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما، أكشف الضُّرَ عن إخواننا المستضعفين في فلسطين. وفي كلِّ مكان، اللهم ارحم ضعفَهم. واجبر كسرَهم. وتولَّ أمرهم. واحفظهم. واحقن دماءَهم. يا ربَّ العالمين. اللّهمّ قوِّ شوكتَهم، وسدِّد رأيَهم ورَميَهم، وثبّت أقدامَهم. وانصرهم على عدوّك وعدوِّهم. يا ربّ العالمين. اللّهمّ انصر دينَك وكتابَك. وسنّةَ نبيّك وعبادَك المؤمنين، اللّهمّ أعزَّ الإسلامَ والمسلمين، وأذِلَّ الشِّرك والمشركين، ودمّر أعداءَك أعداء الدين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.
اهـ